الهجاء

اني على كراهيتي للهجاء قد رأيتني مضطرًّا الى انشاء مقالة فيهِ اودعها تعريفهُ وذكر المشاهير من رجالهِ ودواعيهُ واساليبهُ وابيّن ان مدح من يتكّب المنهج القويم اكبر هجوٍ للمادح وان هجوهُ والتشنيع عليهِ حسنةٌ يتبرّع بها الشاعر على الانسانية بل قربة يتقرّب بها الشاعر من ربهِ

الهجاء سيف الشاعر يجرّدهُ متى غضب وسنانهُ يطعن بهِ اذا خنق بل علاجهُ الذي يعالج بهِ الاخلاق المعتلّة وعقابهُ الذي ينزلهُ باعداء الامانة والوفاء. فكم من كعلٍ[1] رمى بهِ الشعراء في جحيم العار يصلي نارها ما اوقد الناس نارًا وكم من جائر طاغيةِ القوة في جهنم المهجيّة والوحشيّة وتركوهُ يتقاصى من عذابها فوق ما قاسى الضعفاء منهُ. فيا ما امرّ ما انزلَ ابو نواس بمن قال فيهِ

سيّان كسر رغيفهِ او كسر عظمٍ من عظامهِ
فارفق بكسر رغيفهِ إن كنت تطمع في كلامهِ

ويا ما اضنك موضعًا الى اليهِ مجوّزًا لهُ بقولهِ

خان عهدي عمرو وما خنتُ عهدهُ وجفاني وما تغيّرتُ بعدهُ
ليس لي مذ حببتُ ذنب اليهِ غير اني يومًا تغدّيتُ عندهُ

ويا ما احرّ هجو القائل في لئيم

رأى السيف مكتوبًا على باب دارهِ فصحّفهُ ضيفًا فقام الى السيفِ
وقلنا لهُ خيرًا فظنّ بأننا نقول لهُ خبزًا فمات من الخوفِ

ويا ما أوجع هجو القائل في ظالم يتظاهر بالصلاح

قد بلينا بأميرٍ ظلمَ الناسَ وسبّحْ
فهو كالجزّار فينا يذكر الله ويذبحْ

ومن نيران الهجاء المتأججة هجو ابي العباس الكوراني اهل فاس بقولهِ

مشى اللؤم في الدنيا طريدًا مشرّدًا يجوب بلاد الله شرقًا ومغربا
فلما اتى فاسًا تلقّاهُ اهلها وقالوا لهُ اهلاً وسهلاً ومرحبا

وهجو الطرماح لبني تميم

(١) الكعل النغي الشحيح

تميم بطرق اللؤم اهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلّتِ
ارى الليل يجلوهُ النهارُ ولا ارى خلال الخازي عن تميم تجلّتِ
ولو انّ يربوعًا على ظهر قملةٍ بكرٌ على صفي تميم لزلتِ

وشجر الخوارزميّ لطبيب

لم ارَهُ الّا خشبت الردى وقلت يا روحي عليكِ السلامْ
يبقى ويفنى الناس من شؤمهِ تومواْ النظروا كيف نجاة اللئامْ
ثم تراهُ آمنًا سالمًا يا ملك الموت الى كم تنامْ

وهجو حبيب الطائي ابا الوليد محمد بن ابي دؤاد

اتطمع ان تُعَدَّ كريم قومٍ وبابك لا يطيف بهِ كريمُ
كمن جعل الحفيض لهُ مهادًا ويزعم انّ اخوتهُ النجومُ

وهجوهُ لمحمد بن حسن الشاعر

تكلّمَ فيَّ من يعلو بذكري ويخفضني بذكريهِ الكلامُ
يلومُ على هجائيهِ الكرامُ وإن لم اهجُهُ لام اللئامُ
فكيف تصرّفت في ذا كحالي تعاورني من الناس الملامُ

وقول جرير

فغضّ الطرف انك من نمير فلا كعبًا بلغتَ ولا كلابا

***

المشاهير من المهجائين

قلّ شاعر لم يرشق بنبال الهجاء من يحقرهُ او يؤذيهِ من اهل عصرهِ غير ان في الشعراء من تجافى طباعهم ان ترد مواردهُ فاذا ثقل على واحدٍ من هؤلاء امرٌ ما او ضاق صدرهُ عن حال ما عاذ بالهجاء ذاهبًا بهِ مذهب الحكيم تفاديًا من التصريح باسم المهجوّ واشفاقًا عليهِ من لسوق العار بهِ او تحاميًا اذاهُ ومن ذلك هجو ابي تمام لبعض بني حميد

اذا جاريت في خُلُقٍ دنيًّا فانت ومن تجاريهِ سواء
رأيت الحرّ يجتنب الخازي ويحميهِ عن الغدر الوفاء
فلا والله ما في العيش خيرٌ ولا الدنيا اذا ذهب الحياء
اذا لم تخشَ عاقبة الليالي ولم تستحيِ فاصنع ما تشاء

وشجوه لمن سرق شعره

مَنْ بنو مجدلٍ مَن ابن الخبابِ مَن بنو تغلب غداة الكلابِ (١)
مَن طُفَيْل مَن عامرٌ ومَن الحا رث أُم مَن عُيَيْنة بن شهابِ
انما الضيغم المصور ابو الاشـ بالِ منّاع كل خيسٍ (٢) وغابِ
من عدت خيله على سرح (٣) شعري وهو لحيني راتعٌ في كتابي
غارة اسخنت عيون القوافي واستحلّت محارمَ الآدابِ

فمن يقرأ مثل هذا الهجو فان كان ممن لهُ علم بواقعة الحال عرف المعرَّض بهم كما يُعرف الشيء بالايماء اليهِ والأعدّ ذلك من باب الحكم والنصائح

وفي الشعراء من اذا خُيِّب املهُ او رُدَّت شفاعتهُ او لم تُسن جائزتهُ اشتاط غضباً والقذ سخطاً على مَن اخذ عليهِ طريق الوصول الى مقصودهِ حتى تخيلهُ كبريتاً مسّتهُ النار بل بارودًا القيت عليهِ الجمار

فهؤلاء حملة لواء الهجاء وناشرو اعلامهِ . ومن مشاهيرهم الحطيئة وابن الزبّر الشاعر وبشّار بن برد الاعمى . والسائب ابو العباس الاعمى الشاعر المكيّ . وعز الدين الاربلي وابن شيرويه الديلي ومحمد بن سعيد القيرواني وابن رشيق وابو سعد الكرماني وابن الجهم والبحتري وابو تمام وابن القطان وابن عُنين وابن بسام صاحب الذخيرة وابن الرومي وابو الطيب المتنبي وجرير والاخطل والفرزدق . ولا يخلو عصر من شاعرٍ يشتهر بقرض الاعراض وهتك الاستار

***

مقام الهجّاء في الناس

ان لهجّاء مظاهر تختلف باختلاف الهجو فتارة يظهر رجلاً سيئاً بل اسدًا مفترساً تخشى وثبتهُ او افعوانًا تقتل لدغتهُ فاذا سأل أُسئل واذا شفع شُفِّع واذا عتب أُعتب وذلك كلهُ اتقاء شرهِ وحذر الوقوع في لسانهِ . وقد جرى هذا المجرى مروان فانهُ بعد ان كان في نيتهِ ان يحدّ الفرزدق ويسجنهُ قيل لهُ اخطأت فيما فعلت فانك عرضت عرضك لشاعر مفحم فوجه وراءهُ رسولاً ومعهُ مائة دينار وراحلة خوفًا من هجائهِ . ولا غروَ فعداوة الشعراء بئس المقتنى . وبمثل هذا يعظم شأن الهجّاء ويعظم امرهُ وتقبل عليهِ الدنيا

ولكن اعلم انهُ لا يراهُ اسدًا ولا افعوانًا الاّ ضعفاء الانام او من لم من الرؤساء فعلات

(١) الكلاب بالضم ماء جرت فيهِ وقعة بين اخوين شرحبيل وانصارهِ ومسلمة وانصارهِ فقتل شرحبيل
(٢) الخيس : غابة الاسد (٣) الابل الراعية

تحت الستار او لباغ تحت الحجاب . وطوراً يظهر طريدة صائد او فريسة سبع او قنص خبيث وذلك متى انزل هجاءهُ بذي سلطةٍ لا يقلّ يدهُ شيءٌ عن مدها اليهِ بالاذى لقد ينزلهُ من ظهر الارض الى بطنها وقد يقتصر على ادلالهِ بالحبس او التغريب فيذا ابن المعتز قد سجنهُ بوري ابن ابك صاحب دمشق وعزم على قطع لسانهِ ثم شفع فيهِ فنفاهُ . وهذا ابن الجهم قد هجا المتوكل فغربهُ الى خراسان ولما انتهى الى شاذياخ نيسابور سجنهُ طاهر باس المتوكل ثم اخرجهُ فصلبهُ مجرداً نهاراً كاملاً . وهذا الحطيئة انذرهُ الامام عمر في البيت المجهور الزبرقان ولم يخرجهُ حتى استعطفهُ بابيات من الشعر . وقد بلغ الهجاء بابن الرومي الى ان دُس لهُ السم في الطعام فكان آخر عهدهِ بالحياة . وقد اورد الهجاء بشاراً حوض المنية قال البطري " كان سبب قتل المهدي لبشار ان المهدي ولّى صالح بن داود اخا يعقوب بن داود الوزير ولاية فهجاهُ بشار بقولهِ :

هُ حملوا فوق المنابر صالحاً اخاك فقبحت من اخيك المنابرُ

فبلغ يعقوب هجاءهُ فدخل على المهدي وقال لهُ ان بشاراً هجاك فطلبهُ المهدي فخاف ان يدخل عليهِ فوجه من القاهُ في البطيحة فمات

وممّن نصب لهم الهجاء احابيل الهلاك ابو الطيب المتنبي فانهُ لما كان راجعاً من عند عضد الدولة بن بويه الديلمي عرض لهُ عند دير العاقول فاتك بن ابي جهل الاسدي في عدةٍ من اصحابهِ وكان المتنبي في جماعةٍ من اصحابهِ فقُتل ابو الطيب وابنهُ محسّد وغلامهُ مفلح وما جرّ اليهِ الموت الاّ هجاؤهُ لاخت فاتك المذكور

***

المهاجاة

لكن اذا دارت المهاجاة بين الشاعرين يخلع الهجّاء صورة الاسد الوثاب والافعوان المسّاب ولا يظهر بمظهر الطريدة او الفريسة بل ينقلب عدوّاً مهاجماً او خصماً مدافعاً . وكلا الشاعرين يتأهب للقاء الآخر ويكرّ عليهِ بكتائب من الاستهزاء والتحقير وبيان المثالب حتى يسوّد اسمهُ ويمزق عرضهُ . وامضى الشعراء هجواً من كان مرّ النفس مترفعاً عن الفحش فانهُ بالبيت الواحد يكاد يسقط بالمهجو عن مقامهِ وهو لا يخرج عن ادبهِ ولا يحط عن رتبتهِ وذلك كقول زهير يهجو آل حصن

فما أدري ولست اخال ادري أقومٌ آل حصنٍ ام نساءُ

وهذا خير مذاهب الهجاء وانقى اساليبهِ ولا يلتزمهُ الاّ من يحاذر ان يصاب بسهمهِ او يجرح

يحسامو . وافضل الهجاء ما لا يشبع بالنذارى ان ينشدهُ في خدورهنَّ . وعندي ان الهجاء الذي يرافقهُ خوف من سطوة المهجو يخرج بخلق طاهر غير ملوثٍ بدنس المداهنة والمقاذفة فان الخوف خير مؤدّب فيكون كالسهم المصائب وقد مرَّ بالذهب . ومتى كان الهجّاء لا يأنف من الفحش ولم يكن وراءهُ ما يخيفهُ كان قلمهُ كقضيب بيت الماء تنصرف النفوس عن انشاد اهاجيهِ واذا كان في الديوان بيوت دنسة وقصائد بذيئة اعرض الادباء عنهُ اعراض الناس عن الجيف

ولي الهاجاة التي وقعت بين جرير والفرزدق والاخطل ابيات يخجل الكاتب ان يتمثل بها كما يخجل المتكلم ان ينشدها ولاسيما في عصر التهذيب وكان الخليق بهؤلاء الثلاثة ان تكون طريقتهم في الهجو كطريقتهم في علوّ النظم حتى يتندى بهم في الادب كما يتندى بهم في اساليب البلاغة وتحبير الكلام . وما احراهم ان يرعى كلٌّ حرمة الآخر ولاسيما وهو يعلم انهُ ينازل من هو كفؤهُ وفي طبقتهِ ولكنها الاعصار تباين فيها العادات وتتباعد المشارب ولولا هذا ما كنت ترى كلاً منهم يقذف الآخر بماء النهر افنّ نجاسةً منهُ . ولولا هذا ما كان ليجري على السنتهم من اللفظ البذيء مثل ما اودعهُ دواوينهم بل كان كل هجائهم من مثل قول جرير في الاخطل

لو ان تغلب جمّعت احسابها يوم التفاخر لم تزن مثقالا

والحاصل ان الفحش في الهجاء يغضّ من الهاجي فوق ما يغضّ من المهجوّ . وهنا يخطر لي ما جاء في الامثال من قولهم "كلّ اناء بالذي فيه ينضح" ومن قولهم ايضاً "كالك تحت طيّ لسانك لا تحت طيلسانك"

ومن الهاجي ما هو كصاقٍ ترشق على جدار فلا تضرّ المهجوّ شيئاً وذلك كأن يهجى المرء بخصول ابيهِ او باحتراقهِ الحرف الدنيئة او بسبب وطئهِ وذلك كقول بعض الشعراء في هجو المتنبي

اي فضل لشاعر يطلب الفـ ـضل من الناس بكرةً وعشيّا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيّا

وكهجو ابي الفرج الاصفهاني لابي سعيد السيرافي

لست صدراً ولا فرأت على صد ـرٍ ولا عمك البكيّ بشافِ
نعم الله كلّ نحرٍ وشعرٍ وهروشٍ يجيّ من سيرافِ

وينتظم في هذا السلك نحو احد الشعراء للمبرّد صاحب كتاب الكامل

سألنا عن ثمالة كلّ حيّ فقال القائلون وسَن ثمالة

فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا زدتنا بهم جهالة

وكذا هجاء قطربه لابن دريد اشعر العلماء واعلم الشعراء

ابن دُرَيد بقرّة وليه عيٌّ وشرّة

وبدَّي من حمقه وضع كتاب الجمهرة

وهو كتاب العين الاّ انهُ قد غيَّرهُ

فلم يغضّ الهجاء من المتنبي ولا السيرافي ولا المبرّد ولا ابن دريد ولم يقلل بواحد منهم عن منعة الكرامة ولا زحزحهُ عن مرتبة الفضل . ألا وان آثارهم شاهدة لهم بطول الباع مكذبة لاهاجيّ حسّادهم . هذا وقد زيّنت بو اعيان الفضلاء تراجمهم من الثناب الاجلال اكبر دليل على ان سهام من يهجوهم قد طاشت واخطأت الغرض وكذا هجاء الحاسدين يكون

•••

دواعي الهجاء

لا داعية للهجاء النافع في تهذيب الاخلاق كالتوغل في المذام والمساوىء التي تجتاح الآداب وتهدم اسوار القوانين فهو حينئذٍ كالعقوبة على الجناية . واما ما كان داعيهُ الحسد والغرض منهُ الغض من كبير فاضل او عالم نافع فلا يأتيهِ الاّ من لاخلاق لهُ من الادب . فهذا عصرنا الذي لا يعدد فيهِ من كسروا لبود الشرائع لم نرَ الشعراء قالوا في واحدٍ منهم الاجوزة تبقى عنوبةً لهم ومن يحذو حذوهم على وجه الدهر . فاكان اسير الاهاجي التي تساق اليهم وتنفى سيوفها على كل مُلمّ . فهؤلاء هم احق بالهجاء من ممدوح لا يجيز المادح ومن شحيح لا يجود على فقير . ولو سلك الشعراء هذا المسلك في من يفسدون الاخلاق الكريمة ويدخلون العادات الذميمة ويأكلون حقوق الناس لكانوا من اعاظم اعوان النجاح واكابر انصار الانسانية ولرُزقوا من حظ الاشتهار ما لا يرزقونهُ في غيره من ابواب الشعر ولنالوا من شرف الاستشهاد باشعارهم ما تالهُ الآيات المنزلات وكانت هيبتهم في النفوس هيبة الحاكم العادل ومقامهم في الناس مقام المهذب الفاضل . هذا وان الاخلاق والآداب تستصرخ الشعراء والكتّاب ليداووا جراحها بمقالات وقصائد تصور شناعة المثالب وتشل قباحة المذام وتأبى المروّة الاّ ان يجيبوا واقه من وراء الاجر

سعيد الخوري الشرتوني